المركز الماركسي ـ اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين
بم نبدأ
مكتبة النجمة الحمراء

بم نبدأ ؟ (١٧٢)

ان السؤال «ما العمل ؟» يطرح في السنوات الاخيرة امام الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس بقوة خاصة فليس المقصود اختيار السبيل (كما كان الحال في اواخر العقد التاسع واوائل العقد العاشر) بل المقصود ان نعرف اي خطوات عملية يتعين علينا ان نخطوها في السبيل المعروف وباي طريقة على وجه الضبط ان المقصود هو منهج وخطة النشاط العملي ولا بد من الاعتراف بان هذه المسألة المتعلقة بطابع النضال ووسائله الاساسية بالنسبة لحزب عملي لا تزال معلقة عندنا ، ولا تزال تثير خلافات جدية تدل على تقلقل واضطراب في الافكار يؤسف لهما فان الاتجاه «الاقتصادي» الذي يحاول ان يبتر ويضيق العمل في حقل التنظيم السياسي والتحريض السياسي ، أبعد من ان يكون قد مات ؛ هذا من جهة ومن جهة اخرى يرفع اتجاه الاختيارية اللامبدئية رأسه باعتزاز كما من قبل ، متكيفاً لكل «ميل» جديد ، وغير قادر على التمييز بين مقتضيات الساعة وبين المهام الاساسية والحاجات الدائمة التي تجابه الحركة بكليتها وهذا الاتجاه ، كما هو معروف ، قد بنى لنفسه عشاً في «رابوتشييه ديلو» وبيانه «البرنامجي» الاخير ــ وهو عبارة عن مقالة مدوية ذات عنوان مدو «الانعطاف التاريخي» (العدد ٦ ، «ليستوك «رابوتشييه ديلو» »

(١٧٣) ـ يؤكد بجلاء خاص هذا الوصف في الامس القريب ، كنا نغازل «الاقتصادية» ونغضب للتنديد القاطع بـ«رابوتشايا ميسل» ، و«نخفف» من شأن طريقة بليخانوف في طرح مسألة النضال ضد الحكم المطلق ، ـ اما اليوم فاننا نستشهد بقول ليبكنخت «اذا تغيرت الاحوال في ٢٤ ساعة ، تعين تغيير التكتيك ايضاً في ٢٤ ساعة» ، ونتحدث عن «تنظيم كفاحي قوي» لأجل الهجوم المباشر ، لأجل مهاجمة الحكم المطلق ، وعن «التحريض الثوري السياسي (فباي حزم نتكلم الآن الثوري والسياسي على السواء !) الواسع بين الجماهير» وعن «الدعوة بلا كلل الى الاحتجاج في الشارع» و«تنظيم مظاهرات في الشارع ذات طابع سياسي حاد» (كذا !) وخلافه ، وهلمجراً وهكذا دواليك

لعله كان بوسعنا ان نعرب عن ارتياحنا لكون «رابوتشييه ديلو» قد استوعبت بمثل هذه السرعة البرنامج الذي عرضناه في العدد الاول بالذات من «الايسكرا» (١٧٤) والقائل بانشاء حزب منظم قوي لا يبتغي الظفر ببعض التنازلات وحسب ، بل يبتغي كذلك الاستيلاء على قلعة الحكم المطلق ذاتها ؛ ولكن عدم وجود اي وجهة نظر ثابتة عند المستوعبين من شأنه ان يفسد كل ارتياح

ومن العبث ، طبعاً ، ان تستغل «رابوتشييه ديلو» اسم ليبكنخت ففي ٢٤ ساعة يمكن تغيير تكتيك التحريض حول قضية خاصة ما ، وتكتيك تطبيق بند ما من التنظيم الحزبي ؛ ولكن اولئك الذين لا مبدأ لهم على الاطلاق هم وحدهم الذين يسعهم ان يغيروا ، لا في ٢٤ ساعة وحسب ، ولكن ايضاً حتى في ٢٤ شهراً ، آراءهم فيما اذا كانت ثمة حاجة على العموم وعلى الدوام وبكل تأكيد الى التنظيم الكفاحي والتحريض السياسي بين الجماهير ومن المضحك الاستشهاد باختلاف الاحوال ، وبتعاقب المراحل : فان العمل على انشاء التنظيم الكفاحي وعلى تحقيق

التحريض السياسي امر الزامي في الظرف «الرمادي ، السلمي» ايـاً كان ، في مرحلة «هبوط المعنويات الثورية» اياً كان ناهيك عن ان هذا العمل ضروري بخاصة في مثل هذا الظرف على وجه الدقة وفي مثل هذه المرحلة على وجه الدقة ، لأنه يفوت اوان انشـــاء التنظيم في اوقات الانفجارات والغليانات ينبغي ان يكون التنظيم جاهزاً لكي يقوم بنشاطه على الفور «يجب تغيير التكتيك في ٢٤ ساعة ولكن ، لأجل تغيير التكتيك ، يجب اولا ان يكون هناك تكتيك ؛ واذا لم يوجد تنظيم قوي متمرس بالنضال السياسي في جميع الظروف والمراحل ، فلا يمكن ان يكون موضـــع بحث اي مشروع للعمل متماسك الاجزاء ، يرتكز على مبادئ ثابتة وينفذ باستقامة ، مشروع يستحق وحده من دون سائر المشاريع تسميته بالتكتيك انظروا الى الواقع بالذات يقولون لنا ان «الظرف التاريخي» قد طرح امام حزبنا مسألة «جديدة تماماً» هي مسألة الارهاب في الامس كانت مسألـــة التنظيم السياسي والتحريض السياسي «جديدة تماماً» ، واليوم مسألة الارهاب أوليس مـن الغريب ان نسمع اناساً عجزوا الى هذا الحد عن فهم صلات القربى يبحثون في تغيير التكتيك بصورة جذرية ؟

ومن حسن الحظ ان «رابوتشييه ديلو» ليست على حق ان مسألة الارهاب ليست جديدة على الاطلاق ، وحسبنا هنا ان نذكر بايجاز بالآراء التي ترسخت في صفوف الاشتراكية-الديموقراطيـــة الروسية

نحن مبدئياً لم ننكر الارهاب يوماً وليس في وسعنـــا ان ننكره فهو عمل من الاعمال العسكرية يمكنه ان يكون صالحـــاً تماماً وحتى ضرورياً في لحظة معينة من القتال ، في حالة معينـــة للقوات المسلحة ، وفي ظروف معينة ولكن جوهر الامر يقوم على وجه الضبط في ان الارهاب لا يظهر ابداً في الوقت الحاضر بوصفه

عملية من عمليات الجيش المقاتل مرتبطة ومنسقة بشكل وثيق مع مجمل منهاج النضال ، بل يظهر بوصفه وسيلة لهجمة منفردة مستقلة تماماً عن كل جيش وبالفعل لا يمكن للارهاب ان يكون غير ذلك عندما لا تكون هناك منظمة ثورية مركزية وعندما تكون المنظمات الثورية المحلية ضعيفة ولهذا السبب نعلن قطعاً ان هذه الوسيلة للنضال في هذه الاحوال ليست في حينها وليست صائبة ، وتصرف انشط المناضلين عن مهمتهم الحقيقة ، الأهم من حيث مصلحة الحركة بمجملها ، وتشوش القوى الثورية لا القوى الحكومية تذكروا الاحداث الاخيرة فأمام ابصارنا تندفع الجماهير الواسعة من عمال المدن ومن «الشعب البسيط» في المدن الى النضال ، ولكنه لا توجد عند الثوريين هيئة اركان من القادة والمنظمين أفلا يهدد انتقال اشد الثوريين عزماً وحزماً الى الارهاب في هذه الظروف باضعاف تلك الفضائل الكفاحية التي يمكن عليها وحدها تعليق الآمال الجدية ؟ أفلا يهدد هذا بقطع الصلة بين المنظمات الثورية وتلك الجماهير المبعثرة من المستائين والمحتجين والمستعدين للنضال ، والضعاف بحكم تبعثرهم ذاته ؟ والحال ، في هذه الصلة تكمن الضمانة الوحيدة لنجاحنا نحن ابعد عن التفكير بانكار كل شأن ووزن للضربات الباسلة المنفردة ، ولكن واجبنا ان نحذر بكل حزم من التولع بالارهاب ، من اعتباره الوسيلة الرئيسية والاساسية للنضال ، الامر الذي يميل اليه بقوة بالغة كثيرون جداً جداً في الوقت الحاضر ان الارهاب لن يستطيع ابداً ان يصبح فعلا حربياً عادياً فهو في خيرة الاحوال لا يصلح الا كاسلوب من اساليب الهجوم الحاسم وهنا نتساءل هل يسعنا في الظرف الراهن **الدعوة** الى مثل هذا الهجوم ؟ ان «رابوتشييه ديلو» ، على ما يبدو ، تعتقد ان في وسعنا ذلك وهي ، على كل حال ، تصيح : «انتظموا في طوابير هجومية !» .

ولكن هذا من جديد جهد يتجاوز المعقول فان السواد الاعظم من قوانا الحربية يتألف من متطوعين وثوار وليس لدينا من القوات الدائمة غير بضع فصائل صغيرة ناهيك عن ان هذه الفصائل غير معباة ، وغير مترابطة فيما بينها ، وغير مدربة على الانتظام في طوابير عسكرية على العموم ، وبالاحرى في طوابير هجومية وفي مثل هذه الاحوال ، يجب ان يكون واضحاً لكل من يستطيع ان يرى ظروف نضالنا العامة ، دون ان ينساها لدن كل «انعطاف» في مجرى الاحداث التاريخي ، ان شعارنا في الظرف الراهن لا يمكن ان يكون «الاقدام على الهجوم» ، بل يجب ان يكون «ضرب حصار محكم حول قلعة العدو» وبتعبير آخر ان مهمة حزبنا المباشرة لا يمكن ان تكون دعوة جميع القوى الموجودة الى الهجوم الآن بالذات ، بل يجب ان تكون الدعوة الى خلق تنظيم ثوري اهل لتوحيد جميع القوى ولقيادة الحركة ، لا بالاسم وحسب ، بل بالفعل ايضاً ، اي ان يكون مستعداً على الدوام لتأييد كل احتجاج وكل غليان وللاستفادة من هذه الاحتجاجات والغليانات في زيادة وتعزيز القوات الحربية الصالحة للمعركة الفاصلة

ان درس احداث شباط وآذار (فبراير ومارس) (١٧٥) كبير الدلالة الى حد انه من المشكوك فيه ان نجد الآن اعتراضات مبدئية على هذا الاستنتاج ولكن المطلوب منا في الوقت الحاضر ليس الحل المبدئي للمسألة ، بل الحل العملي وليس المطلوب ان نوضح لأنفسنا اي تنظيم على وجه الدقة ينبغي لنا ولأي عمل على وجه الضبط فحسب ، بل المطلوب ايضا ان نرسم **مشروعاً** معيناً للتنظيم لكي يمكن الشروع ببنائه من جميع الجوانب ونظراً لالحاح المسألة واهميتها ، نعتزم من جهتنا ان نعرض على الرفاق مسودة مشروع سنبسطه بمزيد من التفصيل في كراس نهيئه للطبع (١٧٦) .

وفي رأينا ان تأسيس جريدة سياسية لعامة روسيا يجب ان يكون نقطة الانطلاق للنشاط ، الخطوة العملية الاولى لانشاء التنظيم المنشود ، واخيراً ، الخيط الاساسي الذي يمكننا ، بالتمسك به ، ان نطور هذا التنظيم ونعمقه ونوسعه باستمرار نحن بحاجة في المقام الاول الى جريدة ؛ فبدونها يستحيل القيام بدأب وانتظام بالدعاية والتحريض المبدئيين والشاملين ، الامر الذي يشكل المهمة الدائمة والرئيسية التي تجابه الاشتراكية-الديموقراطية على العموم ويشكل مهمة حيوية جداً في الظرف الراهن اذ اثير الاهتمام بالسياسة وبمسائل الاشتراكية بين اوسع فئات السكان والآن ، اكثر مما في اي وقت مضى ، يقتضي الحال اكمال التحريض المبعثر بالتأثير الشخصي ، بالمناشير المحلية ، بالكراريس وخلافها ؛ بذلك التحريض المعمم والمنتظم الذي لا يمكن القيام به الا بواسطة الصحافة الدورية ولن يكون على الارجح من باب المبالغة القول ان درجة تواتر وانتظام اصدار (وتوزيع) الجريدة يمكن ان تكون ادق مقياس لكي نعرف الى اي حد من الجد والمتانة نظمنا عندنا هذا الفرع الاولي والاهم من نشاطنا الحربي ثم اننا بحاجة الى جريدة لعامة روسيا على وجه الدقة فاذا لم نستطع وطالما لم نستطع ان نوحد تأثيرنا في الشعب والحكومة بواسطة كلمتنا المطبوعة ، فانها ستكون من باب الخيال فكرة توحيد وسائل اخرى للتأثير اشد تعقيداً وصعوبة ولكنها بالمقابل اقوى مفعولا ان حركتنا ، سواء على الصعيد الفكري ام على الصعيد العملي ، التنظيمي تشكو ، اكثر ما تشكو ، من التشتت ، من ان الاشتراكيين-الديموقراطيين غارقون كلياً تقريباً ، باغلبيتهم الساحقة ، في لجة العمل المحلي الصرف الذي يضيق على السواء افقهم الفكري ومجال نشاطهم ، ومقدرتهم على النشاط السري واستعدادهم له . وفي هذا التشتت بالذات ينبغي التفتيش

عن اعمق جذور ذلك التقلقل وذلك التذبذب اللذين تحدثنا عنهما آنفاً اما الخطوة **الاولى** الى الامام في طريق الخلاص من هذا النقص ، في طريق تحويل بضع حركات محلية الى حركة واحدة لعامة روسيا ، فيجب ان يكونها تأسيس جريدة لعامة روسيا واخيراً ، اننا بحاجة الى جريدة **سياسية** بالضبط فبدون جريدة سياسية ، لا يمكن في اوروبا الراهنة تصور حركة جديرة بان توصف بانها سياسية وبدونها يستحيل كلياً تنفيذ مهمتنا ألا وهي تركيز جميع عناصر الاستياء والاحتجاج السياسي وتلقيح الحركة الثورية للبروليتاريا بها . وقد خطونا الخطوة الاولى ، وايقظنا في الطبقة العاملة الشغف بالتشهير «الاقتصادي» ، المصنعي . وينبغي لنا ان نخطو الخطوة التالية : ينبغي لنا ان نوقظ الشغف الى التشهير **السياسي** في جميع فئات الشعب الواعية بعض الشيء ولا ينبغي ان نتهيب حيال ما نراه اليوم من ضعف وندرة ووجل في اصوات التشهير السياسي فسبب ذلك ليس البتة تسليم الجميع بالطغيان البوليسي سبب ذلك ان الناس القادرين على التشهير والمستعدين له لا يجدون منبراً يرفعون منه اصواتهم ، لا يجدون بيئة تصغي الى الخطباء بانتباه وتشجعهم ، لا يرون هنا وهناك في الشعب قوة تستحق جهد التوجه اليها بالشكاية من الحكومة الروسية «ذات الحول والطول» اما اليوم ، فان كل هذا يتغير بسرعة بالغة . فان هذه القوة موجودة ؛ انها البروليتاريا الثورية التي ابدت استعدادها ، لا لسماع وتأييد النداء الى النضال السياسي وحسب ، بل ايضاً للاندفاع بجرأة الى النضال وفي وسعنا اليوم ومن واجبنا انشاء منبر للتشهير بالحكومة القيصرية امام الشعب كله وهذا المنبر ينبغي ان يكون الجريدة الاشتراكية-الديموقراطية ان الطبقة العاملة الروسية ، خلافاً لسائر الطبقات والفئات في المجتمع الروسي ، تبدي اهتماماً متصلا

بالمعرفة السياسية وتتقدم دائماً (وليس في مراحل التهيج الخاص وحسب) بطلب ضخم على المطبوعات السرية ونظراً لهذا الطلب المكثف ، ونظراً لتكوين القادة الثوريين المحنكين الذي قد بدأ ، ونظراً لتركز الطبقة العاملة على نحو يجعل منها السيد الفعلي في الاحياء العمالية بالمدن الكبرى وفي البلدات العمالية ، والحواضر المصنعيـــة ، يكون تأسيس جريدة سياسيـــة امراً في مقدور البروليتاريا تماماً وبواسطة البروليتاريا ستتغلغل الجريدة الى صفوف البرجوازيين الصغار فى المدن والحرفيين والفلاحين في الريف وتصبح جريدة سياسية شعبية حقاً

بيد ان دور الجريدة لا يقتصر على مجرد نشر الافكار ، على مجرد التربية السياسية واجتذاب الحلفاء السياسيين ان الجريدة ليست فقط داعية جماعياً ومحرضاً جماعياً ، بل هي في الوقت نفسه منظم جماعي ومن هذه الناحية الاخيرة يمكن ان تقـارن بالصقالات التي تنصب حول بناية يجري تشييدها فتشير الى معالم البناية وتسهل الاتصال بين البناة وتساعدهم على توزيع العمـــل بينهم وعلى رؤية مجمل النتائج التي احرزها العمـــل المنظم وبواسطة الجريدة وبالاتصال معها ، سيتكون من تلقاء ذاتـــه تنظيم دائم لا يقوم بعمل محلي وحسب ، بل يقوم ايضاً بعمـــل عام منتظم ، ويعوّد اعضاءه على تتبع الاحداث السياسية باهتمام وعناية ، وتقدير اهميتهـــا وتأثيرها في مختلف فئات السكان ، وايجاد اساليب صائبة لتأثير الحزب الثوري في هذه الاحداث وان المهمة التكنيكية وحدها ، ــ وهي تزويد الجريدة بالمواد بانتظام وتوزيعها بانتظام ، ــ تجبر على انشاء شبكة من العملاء المحليين للحزب الموحد ، عملاء يكونون على صلة حية بعضهم مع بعض ، ويعرفون وضع الامور العام ، ويعتادون ان ينفذوا بانتظام وظائف العمل الروسي العام الجزئية ، ويمتحنون قواهم في تنظيم هذه او

تلك من الاعمال الثورية ان هذه الشبكة من العملاء * ستكون هيكل هذه المنظمة بالذات التي نحتاجها منظمة تكون على ما يكفي من الكبر بحيث تشمل البلد كله ؛ على ما يكفي من السعة والتنوع بحيث تقوم بتوزيع العمل بصورة دقيقة ومفصلة على ما يكفي من رباطة الجأش بحيث تستطيع في جميع الظروف وفي جميع «الانعطافات» والمفاجآت ان تقوم بعملها هي باستقامة ؛ على ما يكفي من المرونة بحيث تستطيع من جهة ان تتجنب المعركة في ميدان مكشوف ضد عدو ذي قوة ساحقة ، وحشد جميع قواه في نقطة واحدة ، وبحيث تستطيع من جهة اخرى ان تستغل خراقة هذا العدو وتهاجمه حيث وعندما لا يتوقع الهجوم. واليوم تجابهنا مهمة سهلة نسبياً هي ان ندعم الطلاب الذين يتظاهرون في شوارع المدن الكبيرة وغداً قد تجابهنا مهمة اصعب ، مثلا ، مهمة دعم حركة العاطلين عن العمل في منطقة معينة وبعد غد سيتعين علينا ان نكون في مراكزنا لكي نسهم بقسطنا الثوري في تمرد فلاحي اليوم ينبغي لنا ان نستغل تأزم الوضع السياسي ، الناجم عن زحف الحكومة على الزيمستفوات وغداً ينبغي لنا ان ندعم سخط السكان من تعسف هذا او ذاك من الباش بوزوقات القيصريين ونساعد ــ بواسطة المقاطعة او الملاحقة او التظاهر ، وخلافها ــ على تلقينه درساً يضطره الى التراجع المكشوف ان هذه الدرجة من الاستعداد الكفاحي لا يمكن التوصل

---

* غني عن البيان انه لا يسع هؤلاء العملاء ان يعملوا بنجاح الا اذا كانوا على صلة وثيقة جداً مع لجان حزبنا المحلية (الفرق ، الحلقات) ناهيك عن ان كل المشروع الذي رسمناه هو على العموم ، غير قابل للتحقيق ، بالطبع الا في حال تأييده انشط التأييد من قبل اللجان التي قامت غير مرة بخطوات ترمي الى توحيد الحزب والتي نحن على اقتناع بانها ستتوصل الى هذا الغرض ان لم يكن اليوم فغداً ، ان لم يكن بهذا الشكل فبذاك .

اليها الا بنشاط دائب يبذلـــه جيش نظامي واذا ما تضافرت قوانا على اصدار جريدة عامة ، فان هذا العمل لن يهيى ويبرز امهر الدعاة وحسب ، بل ايضاً ابرع المنظمين ، واوفر زعمـــاء الحزب السياسيين موهبة ، من يستطيعون عند الاقتضاء ان يرفعوا شعار المعركة الفاصلة ويقودوا هذه المعركة

وختاماً ، بعض الكلمات تجنباً لكل سوء فهم محتمل لقد تحدثنا على الدوام عن التحضير الدائب ، المنتظم ، المنهاجي فقط ؛ ولكننا لم نقصد البتة ان نقول بهذا انه ليس من الممكن ان يسقط الحكم المطلق الا من جراء حصار محكم او هجوم منظم ان هذه النظرة هي نظرة عقائدية جامدة غبية فالامـــر بالعكس فمن الممكن تماماً ومن المحتمل اكثر بكثير تاريخياً ان يسقط الحكم المطلق تحت ضغط احد هذه الانفجارات العفوية او التعقيدات السياسية غير المتوقعة التي تتهدده على الدوام من جميع الجهات ولكن حزباً سياسياً واحداً لا يسعـــه ، ان لم ينزلق الى المغامرة ، ان يبني نشاطه على امل حدوث هذه الانفجارات والتعقيدات يجب علينا ان نسير في طريقنا ، وان نقوم باستقامة بعملنا المنتظم ؛ وبقدر ما يقل اعتمادنا على المفاجآت ، بقدر ما تزداد الاحتمالات بألاّ تباغتنا « الانعطافات التاريخية » اياً كانت

كتب في ايار (مايو) ١ ١٩

صدر في ايار ١ ١٩ في جريدة « الايسكرا » ، العدد ٤

المجلد ٥

ص ص ١–١٣